ولقد فاتني أن أذكر أن الشيخ رشيد زيد الذي مرّ ذكره مع طبقة الشعراء المجيدين في الفصحى ، ليحسن نظم الشعر البدوي . وقد أتيح لي أن أسمع له قصائد رائعة ، وعالية النفَس في هذا النوع من الشعر ، يعارض في بعضها قصائد مشهورة كاليتيمة وغيرها

والخلاصة أن الحياة الأدبية في شرق الأردن ضئيلة ضعيفة اذا ما قورنت بغيرها من الأقطار العربية ، على أن سيرها في مضامير النشوء والتطور على هذا الشكل المدهش ليدعو الى التفاؤل الشديد . وأنا لا أشك في أنه سيأتي يوم تصبح فيه شرق الأردن بفضل هذه العوامل المختلفة التي بسطناها ، وبفضل غيرها ، حية بأدبها ، وغنية بأدبائها . ولا بد قبل الختام من الاعتراف بما لقصر رغدان من فضل كبير في تنشيط هذه الحياة الأدبية ؛ فقد كان ولا يزال يحدب على الأدب ، ويؤازر الأدباء ، ويشرق على نفوس الشباب بالنور والحياة

(بيروت — الجامعة الأمريكية) عيسى القوس

٦٠٥٦

بعد احتلال أديس أبابا

فضيحة القرن العشرين !

[قطعة مهداة إلى جلالة الأمبراطور العظيم « نزيل فلسطين »]

للأستاذ علي الطنطاوي

... حق صريح يصان في عصور الظلام ، وأمة آمنة تسلم في قرون الجهل ، أفيُعبث بهذا الحق في القرن العشرين ، قرن العلم والنور ... ويُعتدى فيه على هذه الأمة ، فتُسرق أرضها وحريتها وسعادتها ؟

يا لفضيحة القرن العشرين ! ... يا لضيعة المبادئ الانسانية ! يا لخيبة العلماء والأدباء والأحرار ! .. يا لافلاس الحضارة الغربية .. يا للعار على الفكر البشري !

أتبنى المدارس ، وتفتح المعاهد ، وتنشأ المحاكم ، لتبث مبادئ الحق والخير والفضيلة ، وتعمل على ذلك دهوراً ، فيأتي طاغية من طغاة الغرب فيهدمها كلها بطلقة واحدة من مدافعه ، ويرجع بالعالم إلى الوراء عشرين قرناً ، ولا يجد من يأخذ على يده ، وينصف الانسانية منه ؟

أيهزأ طاغية روما بكل المبادئ التي يقدسها البشر ، ويدوسها بقدميه وأقدام جنوده ، ويستعبد أمة بكاملها لم تستعبد منذ فجر التاريخ ؛ ثم يمضي هؤلاء (الممثلون) في طريقهم إلى (مسرح جنيف) ليمثلوا عليه بقية المهزلة ... هذه المهزلة الدامية التي كان أول ضحاياها عظمة الفكر البشري ، وجلال الحضارة الحاضرة ، ومبادئ جمعية الأمم ؟

ارجعوا يا هؤلاء ، ارجعوا إلى بلادكم ، قد تمزق الستار وبدت من خلاله الوجوه المصطنعة واللحى المستعارة والسيوف الخشبية ؛ ورأى الثقلان أن (جبار جنيف) لم يكن إلا صنماً من أعواد ، أقامه الأقوياء ليخدعوا به عباد الأصنام من الأمم الضعيفة ، عن حريتها وحقها ومالها

ارجعوا فأظهروا أنيابكم التي سترتموها ، وأظافركم التي أخفيتموها ... ما أنتم أيضاً إلا ذئاب

* * *

أما أنت أيها الأمبراطور الحبشي العظيم ، أيها الجندي المجاهد الشريف ، فتعزّ واصبر وارتقب ، فليس مع خصمك إلا الحديد والنار ، ولكن العالم كله معك ، والقلوب كلها تخفق بحبك ، وبغض عدوّك . إن الحبّ والبغض هما أقوى سلاح في الوجود ، وانهما إذا لم يقوما اليوم للمدفع والطيارة ، فلن يقوم لهما غداً طيارة ولا مدفع ، وإن خصمك يستطيع اليوم أن يخطب فيصيح ويفخر ويهدّد ، ويستطيع أن يجرّد الجيوش ، ويسير الأساطيل ، ويطلق المدافع ؛ ولكنه لا يستطيع أن يصنع المسمار الذي يسمر به الفلك ، فيقفه عن الدوران ، ولو جمع له كل حديد الأرض . إن الفلك يدور أبداً ، فيقوى الضعيف ، ويضعف القوي ، ويشب الطفل ، ويهرم الشاب ، ويرتفع من كان في الحضيض ، ويهبط من كان في الأوج ؛ فاصبر وارتقب

إنك لم تجبن ولم تفرّ ، وقد أعذرت إلى أمتك ونفسك وإلى التاريخ ، فما ألوت في الجهاد جهداً ، ولا ادخرت عنه أيداً ، وكأني أنظر اليك الآن وقد في كنت دارة عرشك ، وقرارة

ملـكك ، وموطن شعبك ؛ وكنت آمناً مطمئناً ، تتعهد بلدك بالاصلاح ، وأمتك بالتهذيب والتعليم ، فما راعك إلا صوت الصريخ تدوى به أروقة القصر ، فهببت مذعوراً — وما كنت بالذى يذعر أو يضطرب — واستخبرت الخبر ، فعلمت أنه الموت قد حمله المتمدنون إلى بلادك ألواناً ، فخففت إلى هؤلاء المتمدين تسألهم ماذا يريدون ؟

— قالوا : نريد بلادك فاخرج منها ، أو فابق فيها عبداً لنا وخادماً !

— قلت : وأى ثأر لكم عندى ، وأى عداوة بينى وبينكم ؟ أهى أن جاء قوم منكم منذ حين يريدون قتلنا ، فرددناهم عنا ؟ أليس لنا أن ندافع عن أنفسنا ؟

— قالوا : صه ! أنت متوحش .... أنت متأخر .... وقد جئنا لنعلمك ونعلم شعبك ، ونحمل اليهم حضارتنا ومدنيتنا ، فاذا أنت لم تسمع وتطع كلمناك بلسان البارود والغاز الخانق والنار والحديد .....

فثار فى عروقك الدم العزيز الذى لم يذلّ منذ ألفى سنة ، فأهبت بجمعية الأمم ، وناديت حماة السلام . فلما لم تجد منهم مجيباً ، صرخت فى شعبك أن خذوا السلاح وتأهبوا للموت ، فان فى الديار لصوصاً متمدنين ، من أحفاد كافور وغاريبالدى ودانتى ورفائيل . . . يريدون أن يسرقوا حياتكم وحريتكم وبلادكم !

فهبوا للنضال . . . ولكنهم سقطوا شهداء ، أمام وحشية المدنية ، وجهالة العلم ، وذئبية الانسان :

* * *

لا ! إنك لم تنهزم ولم تغلب ، ولكن غلبت المبادىء يا أيها الأمبراطور العظيم ، وانهزمت الفضيلة ، وديس الحق ، وأفلست مدنية القرن العشرين !

إنك لم تنهزم ، وإن الطليان لم يمتلكوا أرض الحبشة ، لأن العصر عصر الأمم لا عصر الملوك ، وقد استسلمت أنت مرغماً للقضاء ، ولكن استسلامك للقضاء ، وتركك أرضك للأعداء ، لا يسلم أمتك إلى الفناء . إن هذا الشعب الذى عاش حراً عشرين قرناً ، لا يستسيغ الاستعباد فى عشرين شهراً ، ولا فى عشرين سنة ، وإنه سيجاهد ويناضل ويقاوم ويقاتل ، ما بقى فيه شخص واحد يمشى على أرض الحبشة ، ويسمع صراخ الأجداد من أعماق الثرى . . . وأعالى السماء . . . تدعوه إلى إنقاذ رفاتهم من نعل الأجنبى الغاصب أن يطأها ويعبث بها ؛ وإن الغالبين قد يملكون اليوم الدساكر والقرى ، وينشئون القلاع والحصون ، ولكنهم لن يمتلكوا القلوب ، ولن ينشئوا فيها الحب ، وها هى ذى طرابلس ، بل هذه هى الأندلس :

ألم تسمع أيها الأمبراطور باسم الملك الطريد أبى عبد الله الصغير ، ذلك الذى كان ملك الأندلس ، وسيد غرناطة ، وصاحب الحمراء ، سليل الملوك الذين جعلوا الأندلس جنة الدنيا ، ومدرسة العالم ، ومشرق أنوار الحضارة ؟ لقد خدعوه كما خدعوك ، فأعطوه العهود والمواثيق ، وأقسم عليها ملوكهم وسادتهم ، وشهد بها أعاظمهم وأشرافهم ، وصدق عليها البابا أمين دينهم وسيدهم على أن يدعوا له قصوره ودوره وأمواله وجواهره ، وحكمه وسيادته ، وعلى أن يتركوا قومه أحراراً فى عبادتهم وبيوتهم ومعاملاتهم وتجارتهم ، وأن يكفلوا لهم راحتهم وهناءتهم وأموالهم وأمتعتهم ؛ فلما ملكوا أخرجوا الملك من أرضه وبلاده ، فرأى لآخر مرة شرف الحمراء ، وجنان العريف ، وجبل شلير ، ثم مضى تتقاذفه به السفينة فى أمواج البحر ، وصورة الأندلس تنأى وتبتعد ، حتى توارت وراء الأفق ، فخرجت من حيز الواقع لتدخل فى حيز الذكرى ، ولتكون أمنية فى نفس كل مسلم ، يوصى بها السلف الخلف ، ويأخذ منه العهد على استرجاع « الفردوس الاسلامى المفقود » ، وعمدوا إلى مسلمى الأندلس ، فأخذوا مساجدهم ، وأحرقوا مكاتبهم ، وفيها ثمرة العقول البشرية منذ مطلع التاريخ إلى ذلك العهد ، ليتلهوا بلهيبها فى ليالى انتصارهم ، وأنشأوا لهم محاكم التفتيش لتدخلهم فى النصرانية قسراً ، وتحرقهم أحياء ، وتعذبهم عذاباً لا يتخيله إنسان . . .

وها هم أولاء الأندلسيون بعد أربعمائة وخمسين سنة ، وبعد احتلال أهوال لا يحتملها بشر ، وبعد أن تنصروا جميعاً ، لا يزالون ذاكرين عربيتهم معتزين بها ، ولا يزالون يحاولون الرجوع إلى الأمم العربية الكبرى ؟

أفتلين الحبشة التى لم تزل عزيزة ، وتندمج فى الطليان فى أيام معدودات ؟

* * *